﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ۝٥٢ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ۝٥٣ فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٖ ۝٥٤ وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٥٥﴾ [الذاريات: 52 - 55]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

للدُّعاة إلى الله تعالى أسوةٌ في صبْرِ المرسلين على تكذيبِ أقوامهم

لمّا دعا الرَّسولُ ﷺ مشركي قريشٍ إلى الفِرار مِنَ الكفر والمعاصي إلى الله تعالى، وتَصَلَّبوا على عنادهم؛ واساهُ الله تعالى هنا بتذكيره ﷺ بأنَّ له في إخوانه من الرُّسل الصّابرين على تكذيب أقوامهم أسوةً، وأنَّ عناد هؤلاء المشركين ليس بِدْعًا من غيرهم من كفّار الأمم السّابقة، بل كان التَّكذيبُ دَيْدَنَ الكافرين في كلِّ أمَّةٍ ولكلِّ رسول؛ فاصبر يا رسول الله، ولا تحزَن، وجِدَّ في تذكيرك ودعوتك إلى الله تعالى، غيرَ مُنْشَغِلٍ بتُرَّهاتهم.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَتَوَاصَوْاْ﴾: أصلُ (وصي) يدلُّ على وصْلِ شَيءٍ بشيءٍ، ومنه سُمِّيَت الوصيَّةُ وصيَّةً؛ لأنَّها وصْلٌ لِما كان في الحَياةِ بعد المَوْتِ[1]، والوَصيَّة: ما أوصَيْتَ به، يُقالُ: أوْصى يوصي إيصاءً، ووَصَّى يوصي تَوْصيَةً؛ إذا عَهِدَ إليه، وأوصَيْتُ إليه بِمالٍ: جَعَلْتُهُ له، والوِصايةُ: فِعلُ الوَصيِّ، والجَمعُ: وصايا[2]، والمرادُ بقوله تعالى: ﴿أَتَوَاصَوْاْ﴾: أأوصى بَعضُهم بعضًا بهذه المقالةِ، وتواطَؤوا عليها؟.

2) ﴿طَاغُونَ﴾: أصلُ (طغى) يدلُّ على مُجاوَزَةِ الحَدِّ في العِصْيانِ[3]، يُقالُ: طَغَى السَّيلُ؛ إذا جاءَ بماءٍ كثيرٍ يَتَجاوَز حدَّ ما

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المحكم: (وصى).
(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والزبيدي، تاج العروس: (وصى).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طغى).

كانَ يجْري عليه، وطَغَى البحرُ؛ إذا هاجَت أمواجُه[1]، والطُّغيانُ: تَجاوُزُ الحَدِّ في التَّعاظُم والظُّلْم والكُفْرِ[2]، والطّاغوتُ عبارةٌ عن كُلِّ مُتَعَدٍّ، وكُلِّ مَعبودٍ مِن دونِ اللّه تعالى[3]، وقومٌ طاغونَ: مُتجاوزونَ حُدودَ اللّه بالعصيان.

3) ﴿بِمَلُومٍ﴾: أصلُ (لوم) يدُلُّ على العَتبِ والعَذْلِ، فاللَّوْمُ: العَذْلُ[4]، والتَّلاوُمُ: أن يلوم بعضُهم بعضًا، قال تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ۝٣٠﴾ [القلم: 30][5]، واللّائِمَةُ: الأمر الَّذي يُلامُ عليه الإنسان، والمرادُ بالمَلوم في الآيةِ: الَّذي يُنكَرُ عليهِ ما فَعَله، أي: ليس عليك في الإعراض عنهم بعدَ بَذْلِ الوُسْعِ والجهد في الدَّعوة ملامةٌ ولا عِتابٌ.

4) ﴿ٱلذِّكْرَىٰ﴾: أصل (ذكر) الحِفْظُ الَّذي تَذْكُرُه، وهو خلافُ النِّسيان[6]، ثُمَّ حُمِلَ عليه الذِّكْرُ باللِّسانِ، فالذِّكْرُ: ما ذَكَرْتَهُ بِلسانِكَ وأظهرته، والذُّكْرُ - بضَمِّ الذّال - بالقَلْبِ، يُقالُ: ما زالَ مِنّي عَلى ذُكْرٍ، أي: لَم أنْسَه، والذِّكْرُ والذِّكرى - بالكسر -: خلاف النِّسْيانِ، وكذلك الذُّكْرَةُ[7]، والاستذكارُ: الدِّراسة للحِفْظِ، والتَّذكُّر: طلَبُ ما قد فاتَ[8]، والمُرادُ بالذِّكرى هنا: الموعِظَةُ، أي: دُم على التَّذكير والموعظة[9].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

كما يكذِّبك كفّارُ قومِكَ - يا أيُّها الرَّسولُ الكريمُ - كذَّب كلَّ رسولٍ كفّارُ قومه، فما أتى رسولٌ قطُّ قومًا يدعوهم إلى توحيد اللّه تعالى وعبادته إلّا اتَّهمه قومُه بالسِّحر والجنون؛ اتَّهموه بالسِّحر لِمعجزاته الخارقة للعادَةِ بدلًا من أن تحتَضِنَ عقولُهم أنوارَها، واتَّهموهُ بالجنون لجُرأته على تسفيهِ معبوداتهم الزّائفة بدلًا من أن يَغْتَنموا ذلك النّور للخروج مِن ظُلمات أرواحهم.

(1) ابن دريد، جمهرة اللغة: (طغي).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 314.
(3) الراغب، المفردات: (طغي).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لوم).
(5) الجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (لوم).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ذكر).
(7) الجوهري، الصحاح: (ذكر).
(8) الخليل، العين: (ذكر).
(9) المراغي، تفسير المراغي: 27/ 11.

وممّا تَعجَّب له متسائلًا: أكان سببُ تواطؤ كفّار الأمم جميعًا على تكذيب الرُّسل، وعلى اتِّهامهم بالسِّحر والجنون، أن أوصَت أسلافُهم أخلافَهم بذلك التَّكذيب والاتِّهام؟.

الطُّغيانُ إذا تَوطَّن النُّفوسَ؛ قادها إلى ارتكابِ جريمةِ أمثالِها

ذلك التَّواصي لم يَحْصُل؛ لأنَّهم أُمَمٌ شتَّى وأزمانهم متباعدة، فلم يَلْتَقِ بعضُهم بعضًا قطُّ، وإنَّما هو الطُّغيان الَّذي إذا تَوطَّن نفوسًا خبيثةً؛ قادَها إلى الجريمةِ نفسِها، فوقَع الحافرُ مِنهُم على الحافرِ.

فما دام الأمرُ كذلك يا رسول الله؛ فلا تَكتَرِثْ لهم، ولا تحزَن عليهم، وأعرِض عن مجادلتهم واستنفادِ طاقتك في إقناعهم، واستمرَّ في دعوتك إلى الله تعالى، وذكِّرْ بها المؤمنين والقابلين للهداية والإيمان ممَّن قدَّر الله تعالى لهم التَّوفيق، فإنَّ التَّذكيرَ يَمُدُّهم بالزّاد الرّوحيِّ المُعين على التَّقوى، المحصِّن من الشَّرِّ وأهله.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فَصْل قوله: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى﴾ عمّا قبله:

في البناء على القَطْع والاستئناف تنبيهٌ إلى العناية بالغرض المقصود

فُصِلَ قول الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ﴾، عن قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾﴾ [الذاريات: 51]؛ لكونه استئنافًا؛ وذلك لِما في البناء على القَطْع والاستئناف هنا من التَّنبيه إلى العناية والاهتمام بشأنه ﷺ؛ إذ إنَّ قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى﴾ "تسليةٌ لِرسول الله ﷺ ببَيان أنَّ هذا شأنُ الأمم المتقدِّمة، وأنَّ ما وقع مِن العرَبِ من التَّكذيب لرسول الله، ووصْفِه بالسِّحر والجنون قد كان مِمَّن قبلهم لِرُسُلهم"[1].

وجهُ التَّعبيرِ باسم الإشارةِ (ذلك):

الإشارةُ في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم﴾ ترجع إلى ما يُعانيه الرَّسول ﷺ من طُغيان مُشْركي مكَّة، مِن

(1) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 109.

تكذيبهم إيّاهُ، ونعتِهم له بالسّاحر والمجنون، وهذا المشار إليه في الذِّهن على الإبهام، وهو (الأمر)؛ لِمجيء تفسيرِه، وهو قوله: ﴿مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم﴾[1].

في صبر الرَّسول ﷺ على طُغْيانِ الكُفّار ائتساءٌ بإخوانه الرُّسل وأسـوة للدُّعاة من بعدِه

و"كلمة ﴿كَذَٰلِكَ﴾ فصْلُ خطابٍ تدلُّ على انتهاء حديثٍ والشُّروعِ في غيره، أو الرُّجوعِ إلى حديثٍ قبلَه أتى عليه الحديثُ الأخير، والتَّقدير: الأمر كذلك، والإشارة - على ذلك - إلى ما مَضى من الحديثِ"[2].

بلاغةُ التَّشبيه في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى﴾:

في تذكير المُبْتَلى بـصـبْرِ أقـرانـه على مِثْلِ ابتلائهِ مواساةٌ وتقويةٌ له

في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ﴾ تشبيه؛ لبيان حالِ عنادِ كفّار قريشٍ وطُغْيانِهم، بحال عنادِ مكذّبي الرُّسُل وطغيانِهم، و"المعنى: أنَّ حال هؤلاء كحالِ الَّذين سبقوهم - ممَّن كانوا مشركين - أن يَصِفوا الرَّسول ﷺ بأنَّه ساحرٌ، أو مجنون، فكذلك سيجيب هؤلاء عن قولك: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝٥٠ وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ﴾ [الذاريات: 50 - 51] بِمثل جواب مَن قبلهم، فلا مَطْمَعَ في ارعوائِهم عن عِنادِهم"[3].

وفي التَّشبيه بصيغة ﴿كَذَٰلِكَ﴾ تقريرٌ للحكم وتوكيدٌ بتشابُه حالِ الكفّار في كلِّ جيلٍ وقَبيل؛ لِما فيه من فَصْلِ الخِطاب، و"في هذا عزاءٌ للنَّبيِّ ﷺ، ووعيد المشركين بأن يَلقَوا المصيرَ الَّذي لَقيَهُ المكذِّبون برُسُلِ اللّه من قَبْلِهم"[4].

موقعُ قوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ من التَّركيب:

من فضيلة الفَضْلِ قوَّة التَّنبيه إلى المعنى المرادِ

قوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ "في محلِّ رفعٍ على أنَّه خبر محذوف، أي: الأمر كذلك، ثمَّ فَسَّر ما أجمله بقوله: ﴿مَآ أَتَى﴾ الآية، أو ﴿كَذَٰلِكَ﴾ في محلِّ نصبٍ نعتًا لِمصدرٍ محذوف، أي: أنذركم إنذارًا كإنذار مَن

(1) الطيبي، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب: 15/ 35.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 20.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 21.
(4) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 535.

تقدَّمني من الرُّسل الَّذين أنْذَروا قومَهم، والأوَّل أوْلى"[1]، "أي: الأمرُ والشَّأن والقصَّة كذلك"[2]؛ لِما في الفصل من قوَّة التَّنبيه.

علَّةُ فصل قوله: ﴿مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ﴾ عمّا قبلهُ:

السّياقُ المحتضِنُ المفسِّرَ والمفسَّر موصولٌ بِوَشائِجَ ذاتيَّة دون عوامِلَ لفظيَّة خارجيَّة

فُصِلَ قول الله تعالى: ﴿مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ﴾؛ لأنَّهُ جملة تفسيريَّة لجملة ﴿كَذَٰلِكَ﴾ قبله، والمفسِّرُ عينُ المفسَّر، فلا يُعْطَفُ عليه؛ إذِ العَطْفُ يُفيد المغايرةَ بين المتعاطفَيْنِ - في الأصل - ولا مغايرةَ هنا، فالسّياق موصولٌ وثيقٌ بوَشائِجَ ذاتيَّةٍ دون عواملَ لفظيَّةٍ خارجيَّة.

معنى ﴿مَآ﴾ وعلَّة إيثارِها على (لم):

أداةُ النَّفي تُهيِّئ لبناء جملة القَصْر مع أداة الاستثناءِ

﴿مَآ﴾ في قوله: ﴿مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ﴾ نافيةٌ نفيًا عامًّا إتيانَ الرُّسل أقوامَهم إلّا على حالٍ واحدَةٍ، فهي لتَهْيِئَةِ بناءِ القَصْر على تلك الحالِ الواحدة، حالِ مُقابلَةِ الأقوام رُسُلهم بالتَّكذيب والطُّغيان.

وأوثِر التَّعبير هنا بـ ﴿مَآ﴾ دون (لم)؛ "لِيُؤْذِنَ بانفصال ما صدَّر بها على ما قبله واتِّصاله بقوله: ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ إِذۡ أَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ٣٨ فَتَوَلَّىٰ بِرُكۡنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٞ ٣٩﴾ [الذاريات: 38 - 39] إلى آخر القصص.

فلمّا وسَّط بينَهما الحديث في بيان الآياتِ الدّالَّة على التَّوحيد، ونفي الشِّرك والفِرار إلى الله تعالى عمّا سواه؛ جيء بقوله الآمر ﴿كَذَٰلِكَ﴾ فصلًا للخِطاب؛ ليتخلَّص منه إلى ما سبَق له الكلام، ولو أتى بـ (لم)؛ لاختلَّ النَّظم"[3].

(1) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 109.
(2) القنوجي، فتح البيان في مقاصد القرآن: 13/ 210.
(3) الطيبي، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب: 15/ 35 - 36.

دلالةُ التَّعبيرِ بفعل الإتيان دون المجيء:

الرُّسلُ ﷺ لم يُكَلِّفوا أقوامَهم ما لا يُطيقونَهُ

في إيثار النَّظم الكريم التَّعبيرَ بالإتيان في جملة: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ﴾ تنبيهٌ على أنَّ الرُّسل ﷺ لم يكلِّفوا أقوامَهُم شيئًا مرهِقًا؛ وذلك لأنَّ "الإتيانَ مجيءٌ بسهولة"[1]، هذا في الجانب المعنويِّ، وفي الجانب اللَّفظيِّ "(جاء) و(أتى) يستويان في الماضي، و(يأتي) أخفُّ من (يجيء) في المضارع، وكذا في الأمر (جيئوا بمثله) أثقلُ مِن (فأتوا بمثله)، ولم يَذكر الله تعالى إلّا ﴿يَأۡتِيَ﴾ [البقرة: 254] و﴿يَأۡتُونَ﴾ [التوبة: 54]، وفي الأمر ﴿فَأۡتِ﴾ [البقرة: 258]، ﴿فَأۡتِنَا﴾ [الأعراف: 70]، ﴿فَأۡتُواْ﴾ [البقرة: 23]؛ لأنَّ إسكان الهمزة ثقيلٌ لتحريكِ حروف المدِّ واللِّين، تقول: (جِئْ) أثقلُ مِن (ائْتِ)"[2].

علَّةُ التَّعبير بالموصول في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم﴾:

المقصود بـ ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم﴾ "قومُ فرعون، وعادٌ، وثمودُ، وقومُ نوحٍ ﷺ[3]، وفي التَّعبير بالموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ تَحاشي ذِكْرِهم بوصف الكُفر - كما لو قيل في غيرِ القرآن الكريم: (كذلك ما أتى الكافرين) - وإهمالٌ لشأنِهم تعريضًا بما سَيَكونُ بالنِّسبة لكفّار قريش، وتقريرٌ لِتَقَدُّم زمانهم، فذلك يَدْعم مواساةَ الرَّسول ﷺ بِسَبْق أحداثٍ مشابهة وقعَت بالفِعْل.

معنى ﴿مِن﴾، ودلالة التَّعبير بالقَبْليَّة:

الطُّغاةُ يتوالدون فكرًا وسلوكًا، ويتتابعون على المنهجِ ذاتِه ما دامت الدُّنيا

﴿مِن﴾ في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم﴾؛ لابتداء الغاية الزَّمانيَّة[4]، فالكلام على الزَّمن السّابق لبعثةِ النَّبيِّ ﷺ.

وإثبات الجارِّ ﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن قَبۡلِهِم﴾ إيماءٌ إلى عدم

(1) الراغب، المفردات، ص: 60.
(2) الزركشي، البرهان في علوم القرآن: 4/ 80.
(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 550.
(4) قباوة، المفصّل، ص: 1850.

استغراق الزَّمن الماضي، بل كان ذلك في بعضهِ، فإنَّ الرُّسُلَ لمّا "كان إرسالهم في بعض الأزمان الماضية، ولم يستغرقوا جميعَها بالفعل"[1]، أُدخِل حرف الجرِّ ﴿مِن﴾؛ لإفادة ذلك.

وفي ﴿مِن﴾ أيضًا معنى التَّوكيدِ والتَّقويةِ، كما هو الغالبُ عليها عِنْدَ دخولها على (قبل) و(بعدُ).

وفي التَّعبير بالقبليَّة في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم﴾ تَطْييبٌ لخاطره - صلّى الله تعالى عليه وسلَّم - وتسليةٌ له؛ ببيان أنَّ هذا شأن الأمم المتقدِّمة، وأنَّ ما وقع من العرَبِ مِن التَّكذيب لرَسولِ الله ﷺ ووصفه بالسِّحر والجنون قد كان ممَّن قبلهم لرُسُلِهم[2]، وأنَّ الطُّغاة الأشرار يتوالَدون فكرًا وسلوكًا، ويتَتابَعون على المنهَجِ ذاته، فهَؤُلاء خَلَفٌ لأولئك السَّلف الأشرار في الطُّغيان ومضادَّةِ الحقِّ وأهله، ولن يَنقَطِعَ مِنهُم الزَّمان ما دامت هذه الدُّنيا.

بيانُ مرجعِ الضَّمير المضاف إليه في ﴿قَبۡلِهِم﴾:

الضَّمير المضاف إليه في ﴿قَبۡلِهِم﴾ يرجع إلى كفّار قريشٍ، قومِ الرَّسول ﷺ لأنَّ المقام لمواساتهِ ﷺ بسبب ما لَقيَ مِنهم مِن طغيانٍ، وسوءِ أدبٍ إزاءَه وإزاءَ دعوتِه الشَّريفة إلى التَّوحيد الخالصِ.

مقامُ المواساةِ للنَّبيِّ ﷺ اقتَضى تخصيصَ كفّار قريش بالذِّكر

بلاغةُ النَّفي والاستثناء في قوله: ﴿مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ﴾:

في قوله تعالى: ﴿مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ﴾ قَصْرٌ اصطلاحيٌّ، والنَّفيُ فيه مبنيٌّ على المبالغة، وذلك بإطلاقِ الحُكم فيه بحسب الأغلبيَّة؛ إذ إنَّ من الأمم مَن قد آمنت برُسُلها، ومنهم مَن قال "أقوالًا غيرَ ذلك وأحوالًا أخرى، وإنَّما

التُّهمة الأكثر دورانًا على ألسنة الكفّار للرُّسُل الكرام عليهم السلام السِّحر والجنون

(1) البقاعي، نظم الدرر: 7/ 288.
(2) القنّوجي، فتح البيان في مقاصد القرآن: 13/ 210.

قُصِروا على هذا؛ اهتمامًا بذِكْرِ هذه الحالةِ العجيبة من البُهتان؛ إذ يَرْمون أعقلَ النّاس بالجنون، وأقومَهم بالسِّحر"[1].

غرضُ تقديم المفعول على الفاعل في قوله: ﴿مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم﴾:

في تقديم المفعول ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم﴾ على الفاعل ﴿رَّسُولٍ﴾ في قول الله تعالى: ﴿مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ﴾ تركيزٌ على بيان جريمة المفعول – وهم الكفّار ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم﴾، أي: من قبل قريش – لأنَّ مقام مواساة الرَّسول ﷺ يقتضي بيانَ ما لقي الرُّسُل الكرامُ قبْله من ظلم أقوامهم وطغيانِهم، لا ما أدّاه الرُّسل الكرام من تبليغِ رسالاتِهم، فقُدِّم ما يعالج المقصود، وهذا من منهجِ النَّظم القرآنيِّ في تحقيق البلاغة القرآنيَّة الدَّقيقة.

من منهج النَّظم القرآنيّ الكريم تقديمُ ما يُعالج المقامَ، ويُؤَدّي الغَرَض

معنى ﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿مِّن رَّسُولٍ﴾:

﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿مِّن رَّسُولٍ﴾ صلةٌ يُرادُ بها توكيدُ العموم والتَّنصيصُ عليه، وأصل التَّركيب: ما أتى الَّذين من قبلهم رسولٌ... فجيءَ بـ ﴿مِّن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّن رَّسُولٍ﴾، وإيرادُها ضرورةٌ؛ "للتَّنصيص على إرادة العموم، أي: إنَّ كلَّ رسول قال فيه فريقٌ من قومه: هو ساحرٌ أو مجنونٌ، أي: قال بعضهم: ساحر، وقال بعضهم: مجنون، وهذا العموم يفيد أنَّه لم يخلُ قومٌ من الأقوام المذكورين، إلّا قالوا لرَسولِهم أحدَ القولين، وما حُكيَ ذلك عن بعضهم في آيات أخرى: بلفظهِ أو بمرادفه، كقول قوم هود: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ [هود: 54]"[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿رَّسُولٍ﴾، ولطيفةُ تنكيره:

في التَّعبير بـ ﴿رَّسُولٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ﴾ استثناءُ مَن لم يُكَذَّب من الأنبياء، مثل آدمَ عليه السلام، فإنَّه

الرَّسولُ أخصُّ من النَّبيّ، والنَّبيُّ مَن تابع رسولًا في الدَّعوة إلى دينه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 22.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 21.

أُرسِل، ولم يُكذَّب، والرَّسول قرينُ الرِّسالة، وذلك أنسَبُ للفعْلِ ﴿أَتَى﴾ وللتَّكذيب، والوصفِ بالسِّحر والجنون، والمتبادِر من إتيان الرَّسول قومًا مجيئُهُ إيّاهم مع عدم تبليغ غيرِهِ إيّاهم ما أتى به مِن قبله[1].

وتنكيره يفيدُ العمومَ؛ لكونه نكرةً في سياق النَّفْي، فلم ينجُ رسولٌ بُعِثَ إلى الأمم السّابقة من هذين الوَصفَين، فهي سنَّة ماضيةٌ فيهم؛ لتَشابُه أفعالِهم، ومواقفهم، وقد يُفيد تنكيرُ لفظِ ﴿رَّسُولٍ﴾ التَّهويل، أي: ما جاءَهُم مِن رسول مهما عَظُمَ شأنه إلّا وصفوهُ بالسِّحر والجنون.

معنى ﴿إِلَّا﴾ في قوله: ﴿إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ﴾:

الاستثناءُ واقِعٌ مِـن أحـوالٍ محذوفَةٍ

﴿إِلَّا﴾ في قوله: ﴿إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ﴾ استثنائيَّة، تُثبِت الحُكم المنفيَّ عمَّن قبلها لِما بعدها، "والاستثناء في ﴿إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ﴾ استثناءٌ من أحوال محذوفةٍ، والمعنى: ما أتى الَّذين من قبلهم من رسولٍ في حالٍ من أحوالِ أقوالِهم إلّا في حالِ قولِهم: ساحرٌ أو مجنون"[2]، وبـ ﴿إِلَّا﴾ ومدخولِها يتمُّ حصرُ الحُكم المقصود.

دلالةُ التَّعبيرِ بفعلِ القول ماضيًا في قوله: ﴿قَالُواْ سَاحِرٌ﴾:

للتُّهَم الكاذبة خطورةٌ شديدةٌ، فعِقابُها شديدٌ

في التَّعبير بفعلِ القول ماضيًا صريحًا في قوله: ﴿قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ﴾ تأكيدٌ لجريمة الطُّغاة؛ إذ يتجاوزون بطُغْيانِهم أنفسَهم في تشويه الصّالحين، وتثبيط دعوتهم إلى تحريضِ غيرهم، وتَجْريئِهم عليهم، فخطورةُ الكلمةِ الكاذبةِ وعقابِها شديدٌ[3].

دلالةُ إسناد القول إلى ضمير الجماعة:

نسبة الأمور إلى الأقوام والقبائل تجري على اعتبار الغالب

وَجْهُ إسناد فِعل القول إلى ضمير الجماعة في قول الله تعالى: ﴿إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ﴾ أنَّه على إرادة الكثيرِ بل الأكثر، وذُكِر

(1) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 19.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 21.

(3) قد وردت في ذلك أحاديثُ شريفة، منها ما رواه البخاري في صحيحه، رقم: (7047): «وأمّا الرّجُلُ الّذي أتيت عليه، يُشرشرُ شِدقُهُ إلى قفاهُ، ومنخِرُهُ إلى قفاهُ، وعينُهُ إلى قفاهُ، فإنّهُ الرّجُلُ يغدُو مِن بيتِهِ، فيكذِبُ الكذبة تبلُغُ الآفاق» وهو جزءٌ من حديث طويل.

المكذِّب فقط؛ لأنَّه الأوفق بغَرَضِ التَّسلية، وإلّا فإنَّ كلَّ رسول كَذَّبَ به بعضٌ مِن قومه، وصدَّق به آخرون[1].

نكتةُ التَّعبير بـ ﴿سَاحِرٌ﴾، و﴿مَجْنُونٌ﴾، ولطيفة تنكيرِهما:

السِّحرُ كلُّ أمرٍ يَخفى سَبَبُه، ويُتَخَيَّلُ على غير حَقيقَته، ويجْري مجْرى التَّمويه والخداع، وكذا كلُّ ما لطف مأخذُه، ودقَّ، وما كان من الشَّيطان فيه مَعونة[2]، والسّاحر - في عُرْفِهم - هو الَّذي بلَغَ في العلم غايته، والمجنونُ هو الَّذي بلغ في الجهل غايته، وقد نَسَبوهُم إلى السِّحر لِما أتى لهم من الآيات ما عَجز النّاس عن إتيان مثلها، وقد عَرف رؤساؤُهم وأئمَّتهم أنَّها آياتٌ، لكن قالوا: إنَّها سحر على إرادة التَّلبيس على الأتباع والعامَّة؛ لِما عند النّاس أنَّه ليس كلُّ أحدٍ يقدر على إتيانِ السِّحر، فقالوا للرُّسل: إنَّهم سحرَةٌ لهذا، وإنَّما نسَبوهُم إلى الجنونِ لمّا أنَّهم خالفوا الفراعنَة والأكابر، الَّذين كانت هِمَّتُهم القتلَ وإهلاك مَن خالفهم في المذهبِ والأمر[3].

قـد يُـتَّـهـم بالسِّحر مَن أتى بما عَجز النّاس عنه، وبالجنون مَـن تـجـرَّأ على الـخـروجِ على الطُّغاة

وفي تنكير ﴿سَاحِرٌ﴾ و﴿مَجْنُونٌ﴾ إيهامٌ من الكافرين بخطورة الرَّسول الَّذي يتَّهمونه بتلك التُّهمة، والإيحاءُ بأنَّه مِن صنفٍ خطير من السَّحرة والمجانين، فيجِبُ الحذَرُ منه، بل هو جديرٌ بالحَبْسِ والتَّحْجيم.

معنى ﴿أَوْ﴾ في قولهم: ﴿سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾:

﴿أَوْ﴾ في قولهم: ﴿سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ للتَّفصيل، أي: قال بعضُ الكافرين في حقِّ الرُّسل: هو ساحر، وقال بعضهم: هو مجنون، وقال بعضهم: هو ساحر ومجنون، فجُمِعَ القائلون في الضَّمير[4]، وتكون ﴿أَوْ﴾ بمعنى (الواو).

الطُّغاة ينوِّعون تُهَمَهم للدَّعاةِ؛ تشتيتًا لأذهان الـعـامَّـة عن البصَرِ بالحقيقة

وتدلُّ ﴿أَوْ﴾ كذلك على التَّنويع، أي: تنويع التُّهم وتكثيرها، وإلّا

(1) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 19.
(2) الخليل، العين، ومجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط: (سحر).
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 392.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 19.

لعُطِف بالواو، فقيل: ساحر ومجنون، وفي ذلك التَّنويع تشتيت لأذهان العامَّة عن تركيز التَّحقيق في تُهمةٍ واحدة، وذلك يُحَقِّق للطُّغاة مأرَبَهُم الخبيثَ.

نكتةُ تقديم تهمةِ السِّحْر على تهمةِ الجنون:

يُقدِّم الطُّغاةُ تُهمة الرُّسُل ﷺ بالسِّحر على تهمتهم إيّاهم بالجنون؛ لأنَّ غرابة معجزاتِهم الخارقة أقربُ إلى إبداع السَّحرة منها إلى تخليط المجانين - وحاشا الرُّسُلَ من ذلك كُلِّه - فيبادر الطُّغاة بتوجيهِ العُقول إلى ما يُمكِن تصديقُه في الرُّسل ﷺ مِن وصفهم ببراعَةِ السِّحر.

الطُّغاة يبادرون بتوجيه التُّهَم الَّتي يتأتَّى تَصْديقُها في الدُّعاة المُصْلِحين

حكمَةُ الجَمعِ بين الوصفين:

جُمِعَ بين وصفَي السِّحر والجنون، في قوله: ﴿إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ﴾؛ لأنَّ إتيانَه بالمعجزات الَّتي بهَرَت عقولَهم، اقتَضَت تسميتَهُ ساحِرًا - بحسب زعمهم - وخروجَهُ عن عوائِدِهم وعَمّا عليه آباؤُهم، وعدم مبالاتِهِ بالجمِّ الغفير؛ اقتضى تسميتَهُ مجنونًا[1].

يصفُ المُعْرِضون الإتيانَ بالمعجزاتِ الباهرة بأنَّه سحرٌ، وعدمَ الاكتراث بالجمِّ الغفير بكونه جنونًا

علَّةُ فصل قوله تعالى: ﴿أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ﴾ عمّا قبله:

فُصِلَ قوله تعالى: ﴿أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ﴾، عن قوله تعالى: ﴿مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ﴾ لاختلاف الأسلوبَين؛ إذِ الأوَّل إخبارٌ، والثّاني استفهام إنشائيٌّ، ولا يتعاطفان غالبًا، فيكون بين الجملتين كمالُ الانقطاعِ.

أثَرُ الاستئنافِ البيانيِّ في مُتابَعَة شَوْقِ المتلقّي

ويجوزُ أن يكونَ بين الجملتين شبهُ كمال الاتِّصال؛ إذا حُمِلَ قوله: ﴿أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ﴾ على أنَّه "استئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّ تماثُلَ هؤلاء الأمم في مَقالة التَّكذيب يُثير سؤال سائلٍ عن منشأ هذا التَّشابه"[2]، فجاء الجواب في قوله: ﴿أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ﴾.

(1) الصاوي، حاشية على تفسير الجلالين ص: 1857.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 22.

غرضُ الاستفهام في جملة: ﴿أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦۚ﴾:

تشابُهُ أحوال الطُّغاة في كلِّ العصور يُثير العَجب، ويحمِلُ على السُّؤالِ عن سببه

الاستفهام في جملة: ﴿أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦۚ﴾ للتَّعجيب مِن تواطؤ أغلبِ الكفّار في كلِّ أمَّة على تُهمةٍ بعينها لأنبيائهم، وهي تهمة السِّحر والجنون، والمعنى: كيف أجمعوا على تلك التُّهَمة، وهم لم يَلْتَقوا قطُّ؟ "أي: عجبًا لهم في جَرْيِهم على التَّكذيب والفساد في مضمارٍ واحد"[1]، وجاء إنكار تُهَمِهم تلك "على طريقة التَّشبيه البليغ، أي: كأنَّهم أوصى بعضُهم بعضًا بأن يقولوه، فالاستفهام هنا كنايةٌ عَن لازمه، وهو التَّعجيب؛ لأنَّ شأن الأمر العجيبِ أن يُسأل عنه"[2].

وفي الاستفهامِ مَعْنى التَّقريعِ والتَّوبيخ أيضًا، "أي: هل أوصى أوَّلُهم آخرهم بالتَّكذيب، وتواطؤوا عليه"[3]، حتّى قالوه جميعًا مُتَّفقين عليه؟.

ويجوزُ أن يكون الاستفهامُ هنا "للنَّفي، أي: ما وقع منهم وصيَّةٌ بذلك؛ لأنَّهم لم يَتَلاقوا في زمان واحدٍ"[4].

دلالةُ التَّعبير بفعل التَّواصي ماضيًا:

حرص الطُّغاة في كلِّ جيل على اتِّهام الدُّعاة، يأخُذ صِفَةَ الوَصيَّة من عزيزٍ

في التَّعبير بفعل التَّواصي في قوله تعالى: ﴿أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦۚ﴾ تساؤُلٌ عن سبب استمساكِ الكفّار الطُّغاة بتلك التُّهَم لرُسُلهم ﷺ، وإلماحٌ إلى قوَّة حرصِهم عليها، كأنَّها وصيَّةٌ غاليةٌ مِن عزيز، فلا يفرِّطون في تنفيذِها أبدًا مهما كلَّف ذلك، وفي التَّعبير بالتَّواصي أيضًا بيانٌ أنَّ "هذا دأبُهم وعادَتُهم حتّى كأنَّهم تعاهَدوا عليه، وألقاهُ بعضُهم إلى بعضٍ"[5].

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 450.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 22.
(3) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 110.
(4) القنوجي، فتح البيان في مقاصد القرآن: 13/ 210.
(5) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 449.

بيانُ مرجِعِ ضميرِ الفاعل في قوله: ﴿أَتَوَاصَوْاْ﴾:

اجتماعُ الأوَّلين والآخرين مِنَ الكُفّار على ضربٍ واحدٍ مِنَ الباطِل

ضمير الفاعل في قوله: ﴿أَتَوَاصَوْاْ﴾ يجمعُ الآخرين من كفّارِ قُرَيش والأوَّلين مِن مكذِّبي الرُّسُل في الأمم السّابقة، فـ "أوصَى أولاهم أُخْراهم بالتَّكذيبِ؟ أي: كأنَّ الأوَّلَ قد أوصَى الآخِرَ بالتَّكذيبِ"[1].

معنى (الباء) في القيد ﴿بِهِۦۚ﴾:

تَشابُهُ القلوب يُثمِر تَشابُهَ الأفعالِ والأقوال والسُّلوك

(الباء) في القيد ﴿بِهِۦۚ﴾ مِن قوله تعالى: ﴿أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦۚ﴾ للتَّعدية، والمعنى: أتَواصَوهُ جميعًا؟ وتَناقَلوه كلُّهم، واتَّخذوه ذريعةً لِرفض الرِّسالات؟ والباءُ تُشير إلى قوَّة الاحتِشاد، وشدَّة التَّأهُّب والتَّوحُّد والتَّآزُر على رَمي النَّبيِّ ﷺ بالسِّحر والجنون، ففيها أنَّهم "تشابهت قلوبُهم وأعمالهم بالكُفر والطُّغيان، فتشابهت أقوالُهم النّاشئة عن طُغيانِهم؟ وهذا هو الواقع، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ﴾ [البقرة: 118].

وكذلك المؤمنون، لمّا تشابهت قلوبُهم بالإذعانِ للحقِّ وطلبه، والسَّعي فيه؛ بادَروا إلى الإيمانِ بِرُسُلِهم وتعظيمِهم، وتوقيرِهم، وخطابهم بالخطابِ اللّائق بهم"[2].

بيانُ مرجِعِ الضَّمير في القيد ﴿بِهِۦۚ﴾:

دخولُ كلِّ باطلٍ بعدم تَكراره وإشاعتِهِ، ولو على سبيل النَّفي والإنكارِ، منهَجٌ قرآنيٌّ

الضَّمير المجرور في قوله: ﴿أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦۚ﴾ يعود إلى قولهم الآثِم في كلِّ رسول أتاهم: ساحر أو مجنون، "يعني: أتَواصى الأوَّلون والآخرون بهذا القول حتّى قالوه جميعًا مُتَّفقين عليه"[3]، وفي طيِّ هذا القولِ - ساحر أو مجنون - وعدمِ الإفصاحِ به ثانيةً دعوةٌ إلى إزهاقِ كلِّ باطلٍ بعدم تَكراره وإشاعته، ولو على سبيل النَّفي والإنكار؛ تطهيرًا لساحة الرُّسُل ﷺ مِن كلِّ شائبة.

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 550.
(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 812.
(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 405.

معنى ﴿بَلْ﴾ في قوله: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾:

﴿بَلْ﴾ في قوله: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ حرفٌ دالٌّ على الإضراب، وهو يُفيد الرُّجوع عن الحُكْم السّابق، والمعنى: "ما أوصَى أوَّلُ هؤلاء المشركين آخرَهم بذلك، ولكنَّهم قومٌ طغاةٌ متعَدّون عن أمرِ ربِّهم، لا يأتَمِرون لأمرِه، ولا ينتَهون عمّا نَهاهم عنه"[1]، و"لم يتَواصوا به؛ لأنَّهم لم يتلاقوا في زمانٍ واحد، بل جَمَعَتهُم العِلَّة الواحدةُ، وهي الطُّغيان"[2]، و"النُّفوس النَّكِدة والطِّباع اللَّئيمة تُفرز من ذاتها هذا الضَّلال الَّذي يُغرِقها، ويُغْرِق مَن يأخذ طريقه معه"[3]، والطُّغيان: مجاوزة الحدِّ في الكفر[4].

نفوسُ الكفّار نكِدة، وطباعهُم لئيمة؛ تُفرِزُ مِن ذاتها الضَّلال الَّذي يُغرِقها

نكتةُ بناءِ الجملة على تقديمِ الضَّمير ﴿هُمْ﴾:

بَنَى النَّظمُ الكريم قوله تعالى: ﴿هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ على تقديم الضَّمير ﴿هُمْ﴾؛ تقريرًا لِصفة الطُّغيان في هذا الصِّنف المتوالد من الكفّار الطُّغاة إزاءَ رُسُلهم، وكأنَّهم هم وحدَهُم الطُّغاة كامِلو الطُّغيان، وكأنَّ الطُّغيان قد قُصِر عليهم، ولم يتَّصِف به أحدٌ سِواهُم، وذلك كنايةٌ عَن بشاعَةِ جُرم المتصدّين للرُّسُل ﷺ المناوِئينَ لهم، والمتجرِّئين على اتِّهامهم بالتُّهم الكاذبة.

أفظع صوَر الطُّغيان مواطأةُ الكفّار على اتِّهام الرُّسل زورًا وبُهْتانًا

نكتةُ إقحام كلمة ﴿قَوْمٌ﴾ دون الإخبارِ مباشرة بـ ﴿طَاغُونَ﴾:

الخبر في جملة: ﴿هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ هو ﴿طَاغُونَ﴾، والتَّقدير: بل هم طاغون، لكنَّ النَّظم الكريم أدخَلَ ﴿قَوْمٌ﴾، وجعله الخبَر، وجعل ﴿طَاغُونَ﴾ صفتَه، ووراءَ ذلك التَّصرُّف التَّركيبيِّ لطيفةٌ دقيقة، بيَّنها ابنُ عاشور بقوله: "وفي إقحام كلمة ﴿قَوْمٌ﴾ إيذانٌ بأنَّ الطُّغيان راسخٌ في نفوسِهم، بحيثُ يكون من مُقَوِّمات قوميَّتهم، كما في قوله

الطُّغيان قِوامُ قوميَّة الطُّغاةِ، ومجمعُ شَملِهم، ورَمزُ رابِطَتِهم

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 551.
(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 405.
(3) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 535.
(4) القنوجي، فتح البيان في مقاصد القرآن: 13/ 210.

تعالى: ﴿لَآيَٰتٍ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ١٦٤﴾ [البقرة: 164] في سورة البقرة"[1]، أي: إنَّهم تواطَؤوا على الطُّغيان حتّى صار قِوامَ قوميَّتِهم، ومجمعَ شَملِهم، ورمزَ رابطَتِهم.

سرُّ التَّعبير بلفظ ﴿طَاغُونَ﴾ مادَّةً وصيغَةً:

جريمةُ الطُّغاة أنَّهم لا عن جهلٍ وشُبهةٍ طغَوا، بل عن وعيٍ وتعدٍّ لحدود الله تعالى

أرجع الله تعالى تَواطُؤَ الكفّار على اتِّهام الرُّسُل عليهم السلام بتهمة السِّحر أو الجنون في قوله: ﴿بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ﴾ إلى طُغيانِهم، و"الطّاغي: المُستَعْلي في الأرض، المفسدُ العاتي على الله تعالى"[2]، وفي وصفِهم بالطُّغيان تنبيهٌ على "أنَّهم لا عن جهلٍ وشُبهةٍ قالوا: إنَّهم سحرة، ولكن عن طغيان وتعدّي حَدِّ الله ﷻ والمجاوزة له، وأنَّ "علَّة تكذيبِهم هي الَّتي اتَّحَدَت، فاتَّحد معلولُها، والعلَّةُ طُغيانُهُم وإظلامُ قلوبِهم بما سبَق"[3]، فـ "مصدرُ تكذيبهم وعصيانِهم هو ما تأصَّل عندهم من غرائزِ الطُّغيان والظُّلم"[4]، "فمَوْرِدُ جَهالتهم مؤتَلِفٌ، ومشرع تَعَنُّتِهم متَّحِد"[5]؛ لذا عبَّر عنهم بصيغَةِ اسم الفاعل المجموعِ، فهُم مُتَمالِئون على الطُّغيان مجتمعون على ترسيخِه.

معنى الفاء في قوله: ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ﴾:

الدّاعيةُ الصّادقُ يَهضِمُ جُهده، ويرى نفسَهُ مقصِّرًا مع عِظَمِ اجتهاده

الفاء في قوله: ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ﴾ "رابطة لجوابِ شَرْطٍ مقدَّر"[6]، والتَّقدير: فما دام الأمر كذلك؛ فتولَّ عنهم، وفيها مَعْنى التَّفريعِ أيضًا؛ إذ تُفرِّع الأمر بالتَّولّي عنهم - أي: عن كفّار قريش - على كونهم طغاةً مجرمين؛ "تسليةً أخرى له ﷺ وذلك لأنَّ النَّبيَّ ﷺ كان مِن كَرَم الأخلاق يَنْسُب نفسَه إلى تقصيرٍ، ويقول: إنَّ عدم

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 23.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 182.
(3) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 450.
(4) حجازي، التفسير الواضح: 3/ 541.
(5) القاسمي محاسن التأويل: 9/ 45.
(6) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 14/ 11.

إيمانهم لتقصيري في التَّبليغ، فيجتهد في الإنذار والتَّبليغ، فقال تعالى: قد أتَيْتَ بِما عليك، ولا يضرُّك التَّولّي عنهم، وكفرُهم ليس لِتقصيرٍ منك؛ فلا تَحزن، فإنَّك لست بملومٍ بِسبب التَّقصير، وإنَّما هم المَلومون بالإعراضِ والعِناد"[1].

دلالةُ التَّعبير بالأمر (تولَّ):

المقصود بالتَّولّي في قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ الإعراض والانصراف وعدم الاكتراث، أي: "أعرض عنهم، وكُفَّ عن جِدالهم ودعائهم إلى الحقِّ، فقد فعلتَ ما أمَرك الله به، وبلَّغت رسالتَه، فما أنت بملومٍ عند الله بعد هذا"[2].

مـن مـنـاهـج الدَّعوة الإعراضُ عَنِ المعاندين

و"قد كان النَّبيُّ ﷺ شديد الحرص على إيمانهم، ويَغْتَمُّ من أجل عِنادهم في كفرهم، فكان الله تعالى يُعاود تسليتَهُ الفَيْنَة بعدَ الفينة، كما قال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ۝٣﴾ [الشعراء: 3]، وقال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾ [الكهف: 6]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ۝١٢٧﴾ [النحل: 127]، وإلّا فإنَّ القرآن جاء بعد أمثالِ هذه الآية بدعوتهم وجِدالهم غيرَ مرَّة، قال تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ۝١٧٤ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ۝١٧٥﴾ في سورة الصّافات [174 - 175]"[3].

ومن معاني التَّولّي عنهم أيضًا أن "أعرِض، ولا تُكافِئْهُم بإساءَتهم إليك بقولهم: إنَّه ساحر، وإنَّه مجنون، فإنَّ الله تعالى سيَكفيهم عنك، ويجازيهم مجازاةَ إساءتهم"[4].

الـدّاعـي إلى الـلـه تـعـالى مأمور بالتَّبليغ والـتَّـذكـير لا باستجابة المدْعوِّ

الأمر في قول الله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ للإرشادِ، قال البقاعيُّ: "زاد الله تعالى نبيَّه ﷺ أشياءَ ممّا ورد على طريقةِ تخييرِه ﷺ في

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 191.
(2) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 110.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 23.
(4) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 393.

أمرهم مِن قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾، ثمَّ أشار تعالى بقوله: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إلى أنَّ إحراز أجره ﷺ إنَّما هو في التَّذكار والدُّعاء إلى الله تعالى، ثُمَّ يَنفع الله بذلك مَن سَبَقَت له السَّعادة: ﴿۞إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ [الأنعام: 36]"[1].

بيانُ مرجعِ ضمير الخِطاب في ﴿فَتَوَلَّ﴾:

إرشادُ النَّبيِّ ﷺ إلى الإعراضِ عَنِ المُشْركين

ضمير الخطاب في قول الله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ للرَّسول ﷺ، والمعنى: "فتولَّ يا محمَّدُ عن هؤلاء المشركين بالله مِن قريشٍ، يقولُ: فأعْرِض عنهم حتّى يأتيَك فيهم أمرُ الله"[2].

و"عَن مُجاهِد قالَ: خرج عَليٌّ معتجِرًا ببرد مُشْتَمِلًا بخميصةٍ، فَقالَ: لمّا نزلت: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾؛ أحزننا، وقُلْنا: أُمِرَ رَسول الله ﷺ أن يتَوَلَّى عَنّا، حَتَّى نزلت: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾"[3].

معنى (عن)، وبيانُ مرجِع مجرورها في القيد: ﴿عَنْهُمْ﴾:

الإرشـــادُ إلى الإعـــراضِ عَـنِ المُعانِدين

(عن) في قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ للمُجاوَزة، أي: تجاوَزْ يا رسول الله الإلحاحَ في دعوة "الَّذين كرَّرتَ عليهم الدَّعوة، فلم يجيبوا، وعرفتَ عنهم العنادَ واللَّجاج"[4]، ودَعْ عنكَ "الحِرْص المُفْرِط عليهم، وذهابَ النَّفس حسراتٍ، ويَحْتَمِلُ أن يُراد: فتولَّ عن التَّعب المُفْرِط في دُعائِهم وضَمِّهم إلى الإسلام، فلَسْتَ بِمُصَيْطِرٍ عليهم، ولستَ بِمَلوم؛ إذ قَد بلَّغت، فنحِّ نفسَك عن الحُزن عليهم، وذكِّر فقط، فإنَّ الذِّكرى نافعةٌ للمؤمنين، ولَمَن قُضي له أن يكون منهم في ثاني حال"[5].

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 450.
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 551.
(3) المحاسبي، فهم القرآن ومعانيه، ص: 427، وابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 443.
(4) الزمخشري، الكشاف: 4/ 405.
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 182.

والضَّمير المجرور في قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ يُقصَد به كفّارُ قريش، فهُم الَّذين أنفَقَ رسولُ الله ﷺ في دعوتهم سنينَ من عُمُرِه، فما آمن معه إلّا قليل.

معنى (الفاء) في قوله: ﴿فَمَآ أَنتَ﴾:

(الفاء) في قوله: ﴿فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ حرفٌ دالٌّ على التَّفريع؛ إذ "فُرِّع على أمرِه بالتَّولّي عنهم إخبارُه بأنَّه لا لوم عليه في إعراضهم عنه"[1]، وعلى ذلك فلا تقصيرَ ولا لومَ على مَن أدّى واجبَ دعوتِه، ويبقى إثمُ الكافِر والعاصي عليهما بعدَ ذلك.

لا لـــومَ عـلى مَـن أدّى واجِـبَ دعـوَتِـه، ويبقى الإثمُ على المعانِدِ

معنى (ما) في قوله: ﴿فَمَآ أَنتَ﴾:

(ما) في قوله: ﴿فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ نافيةٌ اللَّومَ والتَّقصير في دعوة كفّار قريش عن رسولِ الله ﷺ؛ "لأنَّه قد بلَّغ الرِّسالة، وما أُمِر بتَبْليغه إلى الخلق، وقامَ بأمرِه تعالى، ونَصح خَلْقَه، وخَفض جناحَهُ لهم، فكيف يُلام؟ وفيه دلالةُ الحِفْظِ والعِصْمة له عن الزَّيغ والزَّلّات؛ إذْ لو كان بالَّذي يَحْتَمِلُ الزَّيغ والزَّلَّة؛ لكان يحتَمِلُ المَلامة؛ فدلَّ أنَّه لا يحتمل الزَّيغ والعدول عن الحقِّ"[2].

مـن أدّى مهامَّه؛ فـقـد أعـذَر إلى الـلـه تـعـالى، ولـم يُسأل عـنِ النَّتائج

نكتةُ تقديم النَّفي على المسند إليهِ في قوله: ﴿فَمَآ أَنتَ﴾:

في تقديم النَّفي على المسند إليه في قوله تعالى: ﴿فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ مزيدُ تطمينٍ وتكريمٍ للرَّسول ﷺ؛ إذِ التَّقديم هنا يَكادُ يَنطِقُ بدلالة القَصر، وكأنَّه ﷺ وحده النّاجي مِن الملام على التَّقصير في الدَّعوة، وفي ذلك كنايةٌ عن عِظَم ما لَقيَ ﷺ من قومِه، وطول ما دعاهُم، وحَرَصَ على هدايتهم.

لَـقـيَ الـرَّسـول ﷺ مـن قـومـهِ عنتًا كبيرًا، معَ حِـرْصِـه عـلى هدايتهم طويلًا

وفي المجيء بضمير المخاطَبِ مُسْنَدًا إليه، وإدخالِ النَّفي عليه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 23.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 394.

في قوله تعالى: ﴿فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ "اهتمامٌ بالتَّنويه بشأن المخاطَب ﷺ وتعظيمه"[1].

غرضُ التَّعبير بالجملة الاسميَّة في قوله: ﴿فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾:

استنفذ الرَّسول ﷺ أسبابَه في دَعْوَةِ الطُّغاة

التَّعبير عَن نفي اللَّوم عن الرَّسول ﷺ بالجملةِ الاسميَّة في قوله تعالى: ﴿فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ دون التَّعبير بالجملة الفعليَّة - كما لو قيل في غير القرآنِ الكريم: لا نَلومُكَ - "للدَّلالة على ثَبات مَضْمونِ الجملة في النَّفي"[2]، ورسوخ الحكم بعَدَمِ اللَّوم له ﷺ؛ كنايةً عن استنفاذِه طاقَتَه، وبَذْلِه أسبابَه في دعوة هؤلاء الطُّغاة؛ حتّى أعذرَهُ اللّه تعالى، ومدَحَهُ بهذا التَّعبير العامر: ﴿فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾.

معنى الباء في قوله: ﴿بِمَلُومٍ﴾:

عظيمُ صَبْرِ النَّبيِّ ﷺ في الدَّعوة إلى الله تعالى

الباء الدّاخلة على الخبر في قوله تعالى: ﴿فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ صلةٌ يُرادُ بها توكيدُ "نفْيِ أن يكون ملومًا"[3]، وهكذا يَحشِد النَّظْمُ الكريم ما أمكن من عواملِ توكيدِ مَدْحِه ﷺ بما بذَل، وبما صبَر، وبما حَرَصَ على هداية قومِه.

دلالةُ التَّعبير باللَّوم اسمَ مفعول:

يَعذِر الله تعالى الدُّعاةَ الجادّين في مهامِّ دعوتهم، بِغضِّ النَّظر عن ثمرتها

معنى قوله تعالى: ﴿فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ يعني أنَّه ليس عليه ﷺ في الإعراض عن مُشْرِكي مكَّة - بَعد بذل الوُسع والجهد في الدَّعوة - ملامةٌ ولا عتابٌ، ونفيُ اللَّوم نفيٌ؛ لِما فوقَهُ مِن أنواعِ المُؤاخذَةِ، ففي نفي اللَّوم كنايةٌ عن الرِّضوان الكامل مِن اللّه تعالى عن الرَّسول ﷺ، وتنويهٌ بأداء الدُّعاة الجادّين في مهامِّ دعوتهم على الوجهِ الَّذي يَعْذِرهم اللّه تعالى به.

و"جائِز أن يكون المرادُ مِن نفي الشَّيء إثباتَ مقابِلِ ذلك الشَّيء

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 23.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 23.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 24.

وضدِّه، كقوله تعالى: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ﴾ [البقرة: 16]، ذُكِرَ الرِّبْحُ، والمراد: إثباتُ الخُسران، كأنَّه قال: فما ربحت تجارتهم، بل خَسِرَت، فعلى ذلك جائزٌ قولُه: ﴿فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٖ﴾، بل أنت محمود"[1].

معنى الواو في قوله: ﴿وَذَكِّرۡ﴾:

على الدّاعي أن يواصل التَّذكير، والله تعالى هو الهادي إلى سواء السَّبيل

الواو في جملة ﴿وَذَكِّرۡ﴾ عاطفةٌ على جملة: ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ﴾، أي: إنَّ المطلوبَ منهُ ﷺ أن يجمَعَ بينَ تَكليفَين: الإعراض عن مُجادَلَتِهم، ومواصلة الدَّعوة والتَّذكير، وأنَّ أداءَهُ مهمَّةَ الدَّعوة مرَّةً يكفي، بل يواصل التَّذكير، والله تعالى هو الهادي إلى سواء السَّبيل.

دلالةُ التَّعبير بالتَّذكير على صيغة فعل أمرٍ:

الدّاعيةُ إلى الله تَـعـالى لا يـدع التَّذكير والموعظةَ

التَّعبيرُ بالتَّذكير في قول الله تعالى: ﴿وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ يعني الوَعْظَ، أي: "وعِظْ يا محمَّدُ مَن أُرسِلْتَ إليه، فإنَّ العِظةَ تَنْفَعُ أهلَ الإيمانِ بالله"[2]، و"لا تدع التَّذكير والموعظة بأيّام الله"[3]؛ إذ "لمّا أمَرَه بالإعراض عنهم؛ أمرَه بألّا يَترُك التَّذكير والموعظة بالَّتي هي أحسن"[4].

والأمر في قوله تعالى: ﴿وَذَكِّرۡ﴾ "مرادٌ به الدَّوام على التَّذكير وتجديده"[5]، فـ "أمره بألّا يترك التَّذكير والموعظة بالَّتي هي أحسَنُ"[6].

ويُفهم من كلام البقاعيِّ هنا أنَّ الأمر للتَّخيير؛ إذ يقول: وفي هذا "زاد الله تعالى نبيَّه ﷺ أشياءَ ممّا ورد على طريقةِ تخييره ﷺ في أمرهم مِن قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٖ﴾، ثُمَّ أشار تعالى بقوله: ﴿وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ إلى أنَّ

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 393، بتصرف.
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 553.
(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 405.
(4) القنوجي، فتح البيان في مقاصد القرآن: 13/ 211.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 24.
(6) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 110.

إحراز أجرِه ﷺ إنَّما هو في التَّذكار والدُّعاء إلى الله تعالى، ثُمَّ يَنفع الله تعالى بذلك مَن سبقت له السَّعادةُ: ﴿*إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ [الأنعام: 36]"[1].

والأظهر أنَّ الأمرَ بالتَّذكير يُراد به الدَّوام على التَّذكير والزّيادة فيه، ولا ينافي هذا أن يكون أصلُ التَّذكير واجبًا؛ إذ إنَّ هذا وظيفةُ النَّبيِّ ﷺ ووظيفةُ الأنبياءِ عليهم السلام.

بلاغةُ الاحتراسِ في قولِه: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ۝٥٤ وَذَكِّرْ﴾:

في الأمر ﴿وَذَكِّرْ﴾ بعد الأمر بقوله: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ "احتراسٌ من أن يَتوهَّم أحدٌ أنَّ الإعراض إبطالٌ للتَّذكير، بل التَّذكير باقٍ، فإنَّ النَّبيَّ ﷺ ذكَّر النّاس بعد أمثالِ هذه الآيات، فآمن بَعضُ مَن لم يكن آمن مِن قبل، وليكون الاستمرارُ على التَّذكير زيادةً في إقامة الحُجَّة على المُعْرضين، ولئلّا يزدادوا طُغيانًا، فيقولوا: ها نحنُ أولاء قد أفحَمناه، فكفَّ عمّا يقوله"[2].

خـلـوُّ الـجـوِّ للطُّغاةِ؛ إذا تُرِكَ التَّذكيرُ بالكلّيّة، فيَزْعُمون بأنَّهم على الحقِّ

فإن كان المعنى: "لا تُرْهِق نفسَك بالجري وراءَهُم، لكنَّ ذلك لا يمنَعُك مِن أن تقومَ على دَعْوَتِك، وأن تُؤذِّن بها في النّاس، فذلك هو شأنُكَ ودأبُك، وهو أسلوب رسالتِك الَّتي تدعو إليها، ﴿إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ۝٥٤ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝٥٥﴾ [المدثر: 54 - 55]، ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ۝٢٢﴾ [الغاشية: 21 - 22]، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٢٧ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝٢٨﴾ [التكوير: 27 - 28].

فعَرْضُ الدَّعوة على النّاس، وكشْفُ معالِم الهُدى لهم بِما يُتلى عليهم من آيات الله تعالى - وإن لم يَلْتَفِت إليه كثيرٌ منهم، ولم يأخذوا طريقَهُم إليه - أمرٌ مطلوب من النَّبيِّ ﷺ، فإنَّ كثيرًا من

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 450.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 24، بتصرّف.

النّاس ينتفعون به، ويُقيمون وجوهَهُم عليه، كما أنَّ المؤمنين الَّذين آمنوا بالله تعالى، واستجابوا لدعوة الحقِّ يَزيدهم هذا التَّذكيرُ إيمانًا، ويقَعُ مِن قلوبِهم موقعَ النَّفْع، فيُقَوّي يقينَهم، ويُثَبِّتُ أقدامَهم على طريق الحقِّ"[1].

نكتةُ حذف متعلّق التَّذكير في الفعل ﴿وَذَكِّرْ﴾:

بـذلُ الـدّاعـيـةِ وغـظَـةُ لـكـلِّ أحـد، والـهـدايـةُ مِـنَ الله تعالى لمَن يشاءُ

حُذِفت متعلِّقات فِعل التَّذكير مِن جملة ﴿وَذَكِّرْ﴾، فحُذِف المفعولُ، ولم يُنَصَّ على مذكَّرٍ بعينِه، وقد يكون تقديرُ المعنى: "عِظْ كفّار مكَّة، فإنَّ الذِّكرى تنفع مَن كان في علم الله أنَّه يُؤْمِن، وقيل: ذَكِّرهم بالعقوبةِ وأيّام الله"[2]، و"جائز أن يكون الأمرُ بالتَّذكير للكلِّ، ثُمَّ أخبر أنَّ الذِّكرى تنفَع المؤمنين، لا الكلَّ، وجائز: فذَكِّر المؤمنين، فإنَّ منفعة الذِّكرى لهم، ولن أنصَفَ، دون المكابرين المعاندينَ"[3]، وحُذِف المذَكَّر به، والمعنى: "فذَكِّر بالقرآن، أو فذَكِّر بالعظة، فإنَّ الوعظ ينفَعُ المؤمنين، أو: وذكِّر بالثَّواب والعقاب، فإنَّ الرَّغبة والرَّهبة تنفَعُ المؤمنين"[4].

معنى (الفاء) في قوله: ﴿فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ﴾:

(الفاء) في قوله: ﴿فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ تفريعيَّة، وفيها مَعْنى التَّعليل للأمر السّابق في قوله تعالى: ﴿وَذَكِّرۡ﴾[5]، وفيها بشارة للرَّسول ﷺ بأنَّ دعوتَه سَتُؤْتي ثمارَها بغَضِّ النَّظر عن جُحود هؤلاء الطُّغاة من قريش، فلا يأسَ في باب الدَّعوة أبدًا.

لا يـأس في بـاب الـدَّعـوة أبـدًا، فليواصل الدُّعاة مـسـتـبـشـريـن بثمرَةِ دَعْوَتِهم

بلاغةُ التَّوكيد في قوله: ﴿فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ﴾:

توكيد الخبرِ في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ يعالج

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 536.
(2) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 110.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 394.
(4) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 374.
(5) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 323.

مقام الجُحود والطُّغيان الَّذي يعانيه الرَّسول ﷺ من مشركي مكَّة، وإن كان الرَّسول ﷺ موقنًا بِصِدْقِ إخبارِ الله تعالى، إلّا أنَّ مقامَ التَّسليةِ يقتضي توكيدَ الأخبارِ، وإن لم تكنِ الأنفسُ تُنْكِرُها.

مقامُ التَّسليةِ يَحتاج إلى توكيدِ الأخبار، وإن لَم تَكُن النُّفوسُ تُنْكِرُها

وكأنَّ التَّوكيد يقرِّر له ﷺ دلالةَ أنَّه لا عليك من هؤلاء الكفّار يا رسول الله؛ فإنَّ ثمَّة مؤمنين سينتَفعون بتَذْكيرك وعِظَتك، فاستمرَّ في تذكيركَ ووَعْظِكَ مستبشرًا مؤمِّلًا الخيرَ.

معنى (أل) في ﴿ٱلذِّكۡرَىٰ﴾:

(أل) في ﴿ٱلذِّكۡرَىٰ﴾ لتعريف العهدِ العلميِّ، أي: إنَّ التَّذكرة القويمة الَّتي كلَّف الله تعالى بها رُسُله تؤتي ثمارها في المؤمنين الَّذين آمنوا حقًّا، وكذا في الَّذين قدَّر الله تعالى لهم الهُدى والإيمانَ مِمَّن لم يؤمنوا بعدُ.

التَّذكِرة القويمَة تؤتي ثمارَها في المؤمنين ومَن قُدِّر لهم الإيمانُ

دلالةُ التَّعبير بالفعل ﴿تَنفَعُ﴾ مضارعًا:

التَّعبيرُ بالنَّفْع في جملة: ﴿تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ صريحٌ في الإفصاح عن الثَّمرة الَّتي يرجوها الرَّسول - ﷺ - مِن دعوته وتذكيره النّاس، ففيه معالجةٌ لِهُمومه ﷺ بمزيد تبشيرٍ.

التَّذكِرة تُرسِّخ علمَ ما سُمِع، وتُفيدُ عِلمًا جديدًا لَم يُسمَع، أو غُفِل عنه

ومعنى نَفْعِ المؤمنين هنا الزّيادة في عملهم[1]، و"رسوخ العلم بإعادة التَّذكير لِما سمِعوه، واستفادة علمٍ جديدٍ فيما لم يسمعوه، أو غفَلوا عنه، ولِظهور حُجَّة المؤمنين على الكافرين يومًا فيومًا، ويتكرَّر عجْز المشركين عن المعارَضة، ووفرة الكلام المعجز"[2].

وفي صوغ الفعل ﴿تَنفَعُ﴾ مضارعًا دلالةٌ على تجدُّد انتفاع المؤمنين بالتَّذكِرة تجدُّدًا مستمرًّا لا يتوقَّف، ولا ينقطع، بل إنَّه يَمتدُّ إلى الآخرة؛ إذ هنالك الحصادُ ممتدًّا إلى غير نهايَةٍ، وليس إلّا المُضارع كفؤًا لذلك.

(1) النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 3/ 380.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 24.

معنى (أل) في ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، ودلالةُ صوغهِ اسمَ فاعل:

وصفُ حال المؤمنين في رُسوخِ إيمانِهم

(أل) في ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ لتعريفِ العهد العلميِّ، أي: إنَّ الذِّكرى تنفع المؤمنين الَّذين آمنوا فعلًا بِشُعَب الإيمانِ المعلومة مِن دين الإسلام، وتنفَعُ المؤمنين الَّذين سبَقَ في علم الله تعالى أنَّهم يؤمنون، أي: "مَن عَلِم الله تعالى أن يؤمن منهم، ومَن آمن مِن قومك؛ فإنَّ الذِّكرى تنفعهم"[1].

وفي صوغ ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ اسمَ فاعل وصفٌ دقيقٌ لحالِ رُسوخ أقدامهم في هذا الميدان الشَّريف؛ ميدانِ الإيمان الخالص واليقين الصّادق، وتغلغل الإيمانِ في قلوبهم، واليقين في اعتِقادهم.

نكتةُ تقييد نَفع الذِّكرَى بـ ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

إنَّما ينتفع بالتَّذكرة والعِظة المؤمنون الثّابتون على الإيمان

قُيِّد نَفْع الذِّكرى بالمؤمنين بالذّات في قوله تعالى: ﴿ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؛ "لأنَّ ما معهم مِن الإيمان والخشية والإنابة واتِّباع رضوان الله تعالى؛ يوجب لهم أن تنفع فيهم الذِّكرى، وتقع الموعظةُ منهم مَوْقِعَها، كما قال تعالى: ﴿فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلۡأَشۡقَى ۝١١﴾ [الأعلى: 9 - 11]، وأمّا مَن ليس له معه إيمانٌ، ولا استعداد لقبول التَّذكير؛ فهذا لا ينفع تذكيرُه؛ فهو بمنزلة الأرضِ السَّبخة، الَّتي لا يُفيدها المطَر شيئًا، وهؤلاء الصِّنفُ، لو جاءتهم كلُّ آيةٍ لَم يؤمنوا حتّى يروا العذاب الأليمَ"[2].

وفي ذلك التَّقييد أيضًا "إظهارُ العناية بالمؤمنين في المقام الَّذي أظْهَرَت فيه قلَّة الاكتراثِ بالكافرين"[3].

وكأنَّ في تقييد التَّذكير بالمؤمنين توجيهًا إلى عدم تضييع الوقتِ معَ غيرهم، بل يَكْفي فيهم ما يُسْقِطُ التَّبِعَةَ عن الدّاعية، ولا مؤاخذةَ عليه بعدَ ذلك، وهذا ما يتَّسق مع قوله تعالى قبلُ: ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ﴾.

(1) الواحدي، التفسير الوسيط: 4/ 181.
(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 812.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 24.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الظُّلم والطُّغيان:

الظُّلم: وضعُ الشَّيءِ في غَيرِ مَوضِعه تَعَدّيًا، والأصلُ: وضْعُ الشَّيءِ في غَيرِ مَوضِعه، ألا تَراهُم يَقولونَ: مَن أشبَهَ أباهُ؛ فَما ظَلَمَ، أي: ما وضَعَ الشَّبَهَ غَيْرَ مَوْضِعه[1]، والطُّغيان: مجاوزة الحدِّ في المكروه، مع غلبةٍ وقهر، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ﴾ [الحاقة: 11]، يقال: طغى الماءُ؛ إذا جاوز الحدَّ في الظُّلم[2].

الظُّلم وضع الشَّيء في غير موضعه تعدّيًا، والطُّغيان مجاوزة الحدِّ مع القهر

والظُّلم هو الانحرافُ عن ميزان العدل، مَهْما كان يسيرًا أو كبيرًا، وهو يَشْمَل الشِّرك والمعصية والعدوانَ على الآخرينَ، وأمّا الطُّغيان؛ فهو التَّمادي في الظُّلم حتَّى يبلغ حدَّ الغُلوِّ، والعُتوِّ، والجَبروت، ومِن هنا ناسَب وصف القوم بـ ﴿طَاغُونَ﴾؛ لتَماديهِم في الظُّلم والإعراض إلى حدِّ الغلوِّ.

اللَّوم والتَّثْريب والعتاب والعذل:

التَّثريب: شبيهٌ بالتَّقريع والتَّوبيخ، تقول: وبَّخه، وقرَّعه، وثرَّبه بما كان منه، واللَّوم قد يكون لِما يفعله الإنسانُ في الحالِ، ولا يُقالُ لذلك تقريعٌ وتثريب وتوبيخ، واللَّوم يكون على الفعل الحسَن، ولا يكون التَّثريب إلّا على قبيح[3].

اللَّوم عتابٌ في فعل الحسن أو القبيح، والتَّثريب توبيخٌ على فعل القبيحِ

والعتب: الغضَبُ، تقول: "عتبتُ على الرَّجل عتبًا ومعتبةً؛ إذا وجدتَ عَلَيهِ مَوْجِدَة"[4]، و"لامه، وخاطبه مُخاطبَة الإدلالِ طالبًا حُسْنَ مُراجعَته، ومذكِّرًا إيّاه بِما كرهه مِنهُ"[5]، والعَذْل: اللَّوم،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ظلم).
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 337.
(3) معجم الفروق اللغوية، ص: 116.
(4) ابن دريد، جمهرة اللغة، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (عتب).
(5) مجموعة من المؤلفين، المعجم الوسيط: (عتب).

وأصلُهُ: الإحْراق، كَأنَّ اللّائم يُحْرِق بعَذْله قلبَ المعذول[1]، والعُذَلَة: مَنْ يكثِرُ لَوْمَ النّاسِ"[2]، وهو بهذا يختلف عن اللَّوم في شدَّته.

وعليه؛ فإنَّ أنسبَ الألفاظِ لسياق خطاب النَّبيِّ ﷺ هو لفظُ تَرْكِ اللَّوم؛ لأنَّ كلَّ أفعالهِ - صلواتُ ربّي وسلامُهُ عليه - حسنَةٌ.

(1) الخليل، العين، والأزهري، التهذيب: (عذل).
(2) مجموعة من المؤلفين، المعجم الوسيط: (عذل).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع والخمسون،
سورة الحُجُرَات من الآية 15 إلى سورة الطُّور الآية 24
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السابع والخمسون، سورة الحُجُرَات من الآية 15 إلى سورة الطُّور الآية 24
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 57 ، 802 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-650-27-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 57 : المجلد السابع والخمسون، سورة الحُجُرَات من الآية 15 إلى سورة الطُّور الآية 24.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-650-27-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4331956 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"